عن "الاستشراق في ألمانيا بين التقاليد والانفتاح"

د.صادق البلادي



في جامعة مارتين لوثر في هالة بشرق ألمانيا، والتي هي من مراكز الاستشراق الهامة، نظم سمينار علمي أواخر عام ٢٠٠٢/ أوائل ٢٠٠٣ عن "الاستشـراق في ألمانيا بين فترة التنوير إلى ثورة آذار ١٨٤٨ - بين التقاليد والانفتاح".

فكرة السمينار ان رؤية الأوربيين إلى العالم الإسلامي، رغم ما شابها من أوهام وتخيلات في أغلب الأحوال، لم تكن دائما سلبية على الإطلاق، بل كانت تختلف اختلافا كبيرا حسب الزمان والمكان والمحيط الاجتماعي. وإن النظر إلى التاريخ الفكري في ألمانيا مثلا يكشف أن الموقف من العالم الإسلامي قد تغير هناك من قرن إلى قرن ومن عصر إلى آخر. ولذلك يخرج السيمنار باستناج انه لا يمكن الاتفاق تماما مع فرضية ادوارد سعيد في كتابه الشهير "الاستشراق"، والذي ما زال تأثيره قويا على أبحاث الاستشراق الغربي منذ صدوره عام ١٩٧٨. فهو يزعم أن الغرب قد استولى على الشرق بفضل "مستشرقيه" العلميين، والفنيين، اللاهوتيين، لا بل أنه أوجدهم ليثبت تفوقه و عقلانيته وأحقيته في الهيمنة الثقافية والسياسية على العالم. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الكم الأعظم من معارف الغرب عن الشرق جرى صياغته في القرنين التاسع عشر والعشرين، وأن السيطرة الكولونيالية المباشرة قد توسعت بين ١٨١٥ و١٩١٤ من ٣٥% الى ٨٥ % من الكرة الأرضية، فسيبدو القبول بان هذا الشكل من السيطرة مرتبط باستيلاء الغرب فكريا على العالم، أمرٌ له ما يبرره. أما القول بأن الصلف الغربي تجاه الشرق هو الموقف الفكري العام للاستشراق طوال كل مراحل التاريخ الأوربي، فهو مفهوم غير صائب. فسواء في القرن التاسع عشر، حيث تتركز دراسة ادوارد سعيد، أو في عصور سابقة كانت هناك في اوربا مواقف فكرية ومصالح متضاربة، حددت العلاقة بالشرق، وتعاقبت في فترات زمنية قصيرة، لا بل تزامنت أحياناً، بعضها مع بعض: تعصب ديني، مخاوف مشوشة من تزايد الغرباء، الإيمان بامكانية التسامح، الإعجاب بثقافة العالم المقابل، وحسابات السلطة البراغماتية. وفي نطاق المجال الألماني بشكل خاص تظهر هذه التمايزات بكل وضوح. وتبين الدراسات أن التيارات الفكرية التي ظهرت في ألمانيا في الفترة بين عامي ١٧٠٠ و١٨٥٠ قد نظرت الى حضارة الشرق ليس فقط بدون تحيز، بل بتعاطف واعجاب كبيرين. وكانت هذه التيارات المنفتحة على العالم الإسلامي مرتبطة ارتباطا وثيقا بحركة التنوير الساعية إلى التخلص من التحيزات الموروثة، والمؤمنة بالمساواة بين البشر، كل البشر أينما كانوا. ومن أهم الشخصيات الألمانية التي كانت مولعة في ذلك العصر بالشرق الإسلامي الشاعر الألماني الكبير يوهان فولفانغ غوته (١٠٧٩_١٨٥٠) الذي كان شديد الإعجاب بأعمال الشعراء الفرس والعرب القدماء. كان غوته مهتما بالتراث الأدبي الشرقي منذ شبابه، لكن حبه له طغى على قلبه وهو على أعتاب الشيخوخة. ومما أثار هذا الحب ان ناشر كتبه أهداه نسخة من ديوان الشاعر حافظ الشيرازي بترجمته الألمانية. وبعد قراءة هذه الأشعار التي افتتن بها غوته افتتانا شديدا، حاول التعرف على اكبر قدر ممكن من الأساليب الشعرية الفارسية والعربية. ثم انكب على دراسة الثقافة والمفاهيم الإسلامية، وتمرن في الوقت نفسه

على كتابة الخط العربي. وكلما ازداد غوته توغلاً في تراث العالم الشرقي تحـول هذا عنده الى مصدر للإبداع الشعري حتى أصدر ـ بعد سنوات من "الاستشراق" الفكري ـ مجموعة من الأشعار أسماها "الديوان الغربي الشرقي"، يمد بها جسراً شعرياً بين الغرب والشرق.

ولم يكن غوته وحيداً في إعجابه بالشـرق، بـل شـاركه كثير من معاصريه من المفكرين والشعراء والأدباء الألمان. فعلى سبيل المثال هناك معلمه وناصحه المخلص غوتفريد هيردر (١٧٤٤ ـ ١٨٠١) الذي اطلعه على جمالية الشعر العربي في أيام شبابه. وكان هيردر يرى ان حضارات الشرق تمثل في حـيثياتها خلاصة لما هو بشـري، وأن في آدابـها توثيقـاً للإنسانية. وتبين الدراسات أن الاستشراق الألماني لم يكن كله استشراقا تبشيريا واستعماريا، بل كان استشراقا فكريا وأدبيا وشـعريا. ومن المواضيع التي تناولتها دراسـات السـيمنار بالتفصيل: الأزياء التركية في البلاط السكسوني في أيام الملك أوغسـت القـوي (١٧١٦ ـ ١٧٧٤)؛ لقاء متخيل في الآخرة بين السلطان العثماني سليمان القانوني والملك الإنكليزي هنري الثامن في مجلة تنويرية هزلية، اتخذت لها شعارا "لله المشـرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم"، يتحاوران فيه عن قيم الزواج في الغرب وفي الإسلام ويصحـح القانوني الصورة المشوهة لدى هنري الثامن عن الحريم؛ صورة الإسلام في قاموس ألماني صدر في النصف الأول من القرن الثامن عشر؛ المستعرب يوهان ياكوب رايسكه(١٧١٦ـ ١٧٧٤) وبدايات الدراسات العربية في ألمانيا؛ الأديب كريستوف مارتين فيلاند وأسـاطيره الشرقية التي نشرها تحت عنوان "جنستان" (بلاد الجن)؛ الشاعر فريدرخ روكرت (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦) وترجماته الحاذقة للشعر الشرقـي؛ عرض لمسرحـية "المنصور" عن عرب الأندلس المضطهدين من قبل محاكم التفتيش، وهي من تأليف الشاعر هاينريخ هاينة، رفيق كارل ماركس؛ نساء رحالات ألمانيات زرن الشرق في أوائل القرن التاسع عشر؛ والجمعية الألمانية للدراسات الشرقية في مرحلتها التأسيسية. ويسبق هذه الدراسـات التفصيلية مقـال يعرّف القارئ بأهم التطورات في تاريخ الاستشراق الألماني فيما بـين العصور الوسـطى وأواسط القرن التاسع عشر.

نشرت مواد هذا السيمينار في العدد الفصلي الثالث من "حـوار الثقـافات"، وهي مجلة جديدة تصدر في ألمانيا، وتهتم بحوار الحضارات الثقافات والأديان. شعارها قول الشـاعر الألماني الكبير غوته: "من يعرف نفسه وغيره، سيعرف هنا أيضا أن الشـرق والغرب لا يمكن بعد الآن فصلهما." والمجلة تصدر باللغتين العربية والألمانية باشراف الأخوين رزاق وطالب منهل، وهما عراقيان يقيمان في ألمانيا. والأستاذ رزاق منهل كان عضوا في البرلمان في ولاية ساكسين-أنهالت عن حزب الخضر، ومسؤول شؤون الأجانب في بـلدية ديسـاو. العدد الفصلي الثالث صدر أخيرا باللغة الألمانية، وهو يستحق أصداره بـاللغة العربـية لما لدراساته من أهمية.